الفصل العاشر

الملكات العقلية

الملاحظة:

استدعى معلم شابين من تلاميذه؛ فلما مثلا بين يديه سألهما عما شاهدا فى الطريق إلى المدرسة، فأجاب أحدهما بأنه غادر المنزل وسار حتى وصل إلى المدرسة، ولم يتذكر شيئا فى أثناء السير أو سمعه.

أما الآخر فقد أطرق قليلا، ثم انبرى فقص ما أثر فى حواسه من مظاهر الكون وزخرف الصناعة، وأرسل شعاعا من فكره إلى دقائقها، فأحاط بها ورسمها رسما يحرك العواطف ويستحث الخيال؛ ثم انطلق جواد لسانه فى ميدان القول، فوصف الجو صباحا حينما غادر المنزل؛ وعطف على وصف الشمس وقت شروقها، وما لها من القوة فى إزالة حجب الظلام؛ ثم تكلم عن السحاب وتكوينه وفوائده ووقوفه أمام الشمس وانحساره عنها؛ ووصف نوار الشجر يفتحه مر النسيم، ويترقرق عليه مع الندى، وتتعطر به الأرجاء – وصف كل هذا وصفا جمع طرائف الأدب، ومشاهدة الطبيعة. ثم شخص إلى عالم الحيوان والطير فذكر ما شجاه من أصواتها، وما عرف من سجاياها، وقد أخذ حديثه يتدفق تدفقا يدل حسن تنسيقه وارتباط أجزائه على قوة بليغة من الملاحظة وحسن الذوق ومن ذا الذى لا تفتنه مظاهر الطبيعة؟. قبل بزوغ الشمس يكون السكون شاملا، حتى إذا تنفس الصبح غردت الطيور على أفنان الأشجار فرحة، ثم تتألق الشمس فتخلع عن الجو لباس الحداد

الذى اكتسى به حزنا على فراقها، وتأخذ فى السير والنفوس تشيعها بنظرات المشتاق حتى تغيب.

فمثل هذا المظهر إذا صقلته يد الطبيعة، وألبسته ثياب الجدة، تجده يوجه زمام النفس إلى التطلع إليه، والكف عما سواه، ومتى شبعت منه - وزمن هذا لا يزيد على بضع ثوان - أدركت بغيتها، وصار تأثيره فيها عاديا، اللهم إلا إذا تغيّر شكله أو وصفه، أو تكرر نظر النفس إليه باعتبارات عدة.

لا نطمع أن نذكر السبب الحقيقى لذلك؛ وإنما يهمنا أن نرى ولو على سبيل الحدس والتخمين وجه التأثير. فإن المعانى الجديدة - على ما شرحنا فى باب الشوق - تثير النفس فترحب بها، وتنزلها فى دائرة تليق بها من فراغ العقل، وهناك يحصل بين المكان ونزيله احتكاك كاحتكاك الكهرباء، فيتولد منها شرارة نعبر عنها بوجدان السرور والجذل. فإذا تحققنا أن نتيجة هذا التفاعل فقدان مادة التيارات الكهربائي، فلا نزاع فى أن حركة الوجدان ينشأ عنها استهلاك مادة الخلية المنوطة بملاحظته، فتتصرف عنه انصرافا قهريا.

والملاحظة حينئذ لا تقف، بل تنتقل من سبيل إلى سبيل، ما دامت النفس فى طور اليقظة.

فإذا شئنا حبس الملاحظة على أمر بعينه، فلا بد من صبغة بصبغة متجددة، ليبعث النفس على إيقاظ ما غززت مادته من الخلايا. والنفس الكبيرة لا تعتمد على شيء مما يثير الملاحظة، بل تتصرف بنفسها ناظرة إلى الشيء الثابت من وجوه متنوعة لتكون المعانى جديدة فياضة. ولا نحتاج إلى شيء وراء هذا لتقويم الملاحظة التى عليها عماد القوى العقلية.

ضع قلمك أمامك، وتفرغ للنظر إليه، بحيث لا تدع البصر يتحول عنه، فإنه لا محالة يكل بعد زمن وجيز. لكنك إذا شخصت إليه من وجوه كثيرة، وعرضت أوصافه، ففصحت عن شكله ولونه واعتداله، وطيب مادته، وحسن بريه،

وسلاسة كتابه، ووازنت بينه وبين نظائره. ثم إذا توسعت وخرجت من حظيرة الملاحظة، وسمحت للانتباه أن يتصور الأقطار التى تزرعه، والصناع الذين يهيئونه للاستعمال، و التجار الذين يجلبونه إلى ديارنا، ثم اخترق ذهنك حجاب الماضى فكشفت عن تاريخه، وما ترنم الأدباء بشأنه فى المديح وما صاغوه من زخرف القول، فى المفاضلة بينه وبين السيف إلى آخر ما تستطيع سرده على سبيل الاستطراد - فإنك تجد زمن الملاحظة يطول بقدر ما يسمح به حسن تصرفك، لأن كل حركة ذهنية من هذا القبيل تنبه خلية خاصة، ولا تكاد تكل الواحدة حتى تتنبه الأخرى.

لا تستطيع النفس أن تصوب سهام الملاحظة إلا إلى شيء واحد فى زمن واحد، وقد يكون الانتباه إليه قهريا إذا قوى سببه كصوت الموسيقي، ورؤية البرق الخاطف، وسماع الرعد القاصف. وقد يحدث فيها امتعاضا وألما، كمن أصيب بجرح وتولى الطبيب تضميده.

غير أن النفس حينئذ هربا من إحساس التوجع تتوسل إلى الانصراف عنه بعامل آخر كالتنهد أو الصراخ أو اضطراب الأيدى والأرجل، لتحول الملاحظة إلى أمر آخر تحدثه؛ كأنها تسعى بطبيعتها لتهدئة الخاطر السقيم، فتقيم شيئا سهلا مقام شيء صعب. ومثل هذا ضحك الحزين " وشر الشدائد ما يضحك "، ولعله من الجسم تخفيف للوعة، كالعرق يفرزه الجسم تقليلا لوطأة الحرارة. وغالبا يبكى الأطفال بأصوات رهيبة، ولم يكن بكاؤهم يأسا من فقدان الشيء، بل تسلية وتخفيفا لمصيبة الحرمان. وإن من يرزح تحت أعباء البؤس تتلهف نفسه لاستذكار ما تمتع به من قبل، أو تنصرف إلى انتظار أسباب الفرج ترجو بها تخفيف وقع الشدة. حتى إذا صلح الأمر وجبر الكسر فهيهات أن يذكر الإنسان سابق آلامه، وتراه يكره من يعكر عليه صفاء سروره بتذكيرها إياها.

وإذا كان العقل لا يتفرغ إلا لشيء واحد، فكيف تأتى للإنسان أن يكون كاتبا ومفكرا فى آن واحد؟ لو فكرت لعلمت أن هذين الأمرين ليسا خاضعين لسلطان

واحد. فأحدهما صدر عن الفكر، والآخر صيرته العادة آليا.

الملاحظة نور تستجلى به النفس حقائق المرئيات وأشباهها من المحسات، فبينما الإنسان يمر بفكره على الأشياء بدون إمعان وروية، ولا يستطيع أن يغوص فى مضامينها، ليتعرف شأنها، وما تحتوى من خير وشر، تجد المصور يرمق الأشياء بعين الخبير، فيرسم ورق الشجر بدرجات تتفاوت فى الخضرة، بحسب نصيبه من الضوء، فأحيانا مشربا بسمرة وأحيانا بصفرة. وتجد الفيلسوف ناظرا إلى السماء، غواصا فى بحار الفكر والتأمل. على أن النفس المدركة تتفاوت مدركاتها للشيء الواحد بتنوع أطوارها كالنشاط والكسل، والجوع والامتلاء، والصحة والسقم، والسرور والحزن، والعلم والجهل، فتجدها لا تستقر على حال واحدة كزئبق مقياس الحرارة. ولا خلاف فى أن حالها فى الصباح غير حالها فى المساء، وهى فى الشتاء غيرها فى الصيف، وهى صغيرة غيرها كبيرة أو معمرة، وهى ساذجة غيرها عالمة مدبرة مجربة. فكم لعب اليأس بفكر لاعب الشطرنج مثلا، فتفيض عليه الملاحظة وحيا ينفخ فيه روحا يقهر بها خصمه فى ميدان المناضلة. وقد تعترضه العقبة الكأداء فيحكم الملاحظة ويخرج منها حليف الفوز ناجحا. وكم التذ الإنسان من زخرف الشيء لأول وهلة، أو استجاد مذاقه فانبرى يحمده، ويحبب النفوس إليه، مع أنه لو راقبه بإمعان، وأفاض عليه شعاعا من نور الفكر لأنجلى عن سم فى دسم.

فالملاحظة نعيم الفكر، وسلوى للمتوجع، ومفزع المحزون، وحسبنا دليلا على علو شأنها ما نرى آثارها الكبار عند ترداد النظر إلى شيء معين.

يزيدك وجهه حسنا إذا ما زدته نظرا

ناهيك بدرجة المراقبة التى يلوذ بها الأتقياء، فيعرضون أعمالهم على محك الانتقاد قبل أن يختموا صحيفة يومهم؛ ويحاسبون أنفسهم على ما فعلوا، فإذا كان خيرا عزموا على الاستكثار منه، وإذا خطرت فيه شائبة الباطل استعاذوا بالله منه.

لا سبيل إلى تقويم الملاحظة إلا بالملاحظة على سلامة الحواس ومعالجتها بالتمرين. إذن تدرك العين الفروق بين الأشكال ما جاء منها منظما، وما حدا عن النظام ، وكذلك بين الألوان وما بينها من الدرجات، وتدرك الأبعاد بموازنتها بأبعاد معلومة لديها من قبل؛ كذلك تدرك الأذن المسموعة سواء أكانت من خرير الماء، أم من عصف الريح، وتغريد الطائر، وغناء الإنسان، وعزف الآلات، ونفخ المزامير.

من اشترط فى العلم أن يكون طبيبا، أو على الأقل عارفا ما يعرض للحواس من الأمراض، مستطيعا تقويم المعوج منها، ما خرج عن محجة الصواب. وكثيرا ما رأينا قصار النظر من التلاميذ جالسين فى مؤخر الحجرة بالمدرسة، بعيدين عن المرئيات التى يقيد المعلم تسجيل على السبورة. فأمثالهم يطيش سهم بصرهم، ويتوسم فيهم المعلم الضعيف بلها هم بريئون منه. وقد تعترى الأعضاء الداخلية أمراض تعوق السمع عن إثبات المعاني، وتؤدى بالطفل إلى أن يفهم فيه ما ليس حقيقيا ، وكم من تلميذ يتبادر إلى معلمه أن سمعه سليم، ولو فحصه لعرف مركز الداء، واستعان بالدواء: واعلم أن بالحلق قناة موصولة بالأنف، إذا سدت لا تؤدى الأذن وظيفتها، ومثلها كالصفارة إذا سد ثقب منها.

تفقّد حجرة بالمدرسة وراقب تلاميذها فلا تكاد تجدها خالية من تلميذ فاتح فاه، يفعل هذا قهرا ليتنفس منه لأن الأنف – وهو عضو التنفس الطبيعى – مسدود ، وقد زودته الفطرة بزغب شعرى لينقى الهواء الداخل إلى الرئة من الجراثيم. فإذا أمره المعلم – ولا مرد لأمره – بإغلاق فمه فقد حاول عبثا، وظلم نفسه.

فإذا تبين لك أن فتح فمه يدل على أن تلك القناة مسدودة، علمت أن سمعها معطل لا يضبط المسموعات الواصلة إليه، ومحتاج إلى علاج جراحي.